مشروع مقاومة الحفاء والكرامة القومية

لحضرة صاحب العزة الأستاذ حسين رمزى بك

مدير إدارة الخدمة الاجتماعية بوزارة الشئون الاجتماعية

نراقب آثار العاصفة الدموية التى حل بلاؤها بالأمم، ثم نعود بحكم الموطن إلى مقارنتها بما يجرى فى مصر، فنرى كأننا فى معزل عنها، مشغولين بإصلاحات متنوعة حافلة بمشروعات مفيدة تشترك فيها هيئات حكومية داخلية، وتساهم فيها جميع الطبقات .

ولقد دل بحث مجموعة هذه الإصلاحات بعد تحليلها ، على وجود قوة حيوية جديدة سرت خلسة إلى جسم الأمة وعقلها وقلبها، وجرف تيارها نفوس الأفراد فأصبح كل يساهم فيها بحسب استعداده ومقدرته . وهذا برهان على ظهور شخصية قومية بالمعنى الذى حدده علماء الاجتماع، شخصية مدركة قائمة بالمحافظة على ذاتها بذاتها، وطامحة إلى استكمال استعدادها وإظهار صفتها بين الأمم، والأمم كالأفراد، تقارن الواحدة نفسها بسواها ، وتقيس حظها من عناصر الحياة والوجود المادى والأدبى بما توافر لغيرها من الأمم . وبهذا تدخل معها فى ميدان التنافس والتفاضل .

فالإصلاحات القائمة وإن تشابهت شكلا مع بعض الاصلاحات التى تمت فى البلاد قديما تختلف عنها روحا ومنشأ وغاية، لأن مصدرها الجماعة، فلم يعد عمل المصلحين الحقيقيين من الأفراد سوى عمل مكمل ومشجع لها . أما عمل غيرهم فموصوف بالتقليد والاضطرار، والمحاباة والخضوع لحكم الجماعة ومطالبها . فهيهات لفرد يحترم نفسه أن يبقى بعد اليوم بمعزل عن المساهمة بقسط فى هذه النهضة المباركة .

ليست هذه الإصلاحات المختلفة سوى مظاهر لحقيقة واحدة ، أو هى إصلاح عام واحد غايته وقاية الشخصية القومية وعلاجها وتهذيبها وترقيتها وإسعادها .

أما القوة الحيوية السارية فى الأمة والداعية إلى الاصلاحات ، فلا تزال لحداثة وجودها محدودة لتقيدها بنشأتها وبالظروف المحيطة بها . وتكاد مطالبها تدور حول الحاجات المادية فتصرف الجهود فى وجوه معينة من الاصلاحات الصحية والمالية والاقتصادية ، وهذا هو حدها الأقصى ومطلبها الواضح فى نفوس الأفراد ، والمحور الذى يدور حوله التنافس فى الحصول على رضاها .

وأما الجهود القومية الراقية فتبدو للباحث كأنها انفعالات مؤقتة واندفاعات قصيرة العمر ضعيفة العناصر ، قليلة الاستقرار وقوامها عزائم وهمم فردية . فهى عمل أفراد توافرت لشخصياتهم صفات لا تزال ضعيفة فى الشخصية القومية . ولهذا فإن هذه الشخصية وإن كانت حاكمة ومؤثرة فى نفوس الأفراد فإنها تتأثر بهذه الجهود الفردية الراقية التى تهيئ لها ولقوتها الحيوية طريق النمو والكمال . والأمم فى حاجة قصوى إلى هذا النوع من المصلحين .

إن أرقى مظاهر النفس الاجتماعية هو شعورها المستقر بالمحافظة على كرامتها ، فتحزن وتتألم أحيانا ، وتفرح وتسعد أحيانا فى سبيل هذه الكرامة . ولن تصل أمة الى هذا الأفق إلا بعد قطع مراحل من الرقى والتجارب تكون فى نفسها وحدة وجدانية راقية تمتزج فيها الشجاعة والعدل والصدق والغيرة والكرم والصبر وغيرهذه من الصفات الاجتماعية التى تجتمع فى الكثيرين من الأفراد . فمتى بلغت روح الجماعة هذه المرتبة أصبحت أنواع الاصلاحات واجبات محبوبة ميسورة للجميع .

ولو نظرنا الى مجموعة الاصلاحات القائمة ومشروعاتها لوجدنا محورها معالجة الفقر والمرض والجهل وما نحن اليوم أكثر فقرا ولا مرضا ولا جهلا مما كنا عليه ولكنا أصبحنا أكثر إدراكا لوجود هذه الحقائق ، لأن الشخصية القومية قد تنبهت اليها وشعرت بالتضجر منها ، فانفعلت ، وسرى منها الى نفوسنا شعور بالقلق والخوف والحزن ، فأمدنا هذا الادراك وهذا الشعور بقوة حيوية للعمل على الخلاص منها . ولو نظرنا الى نوع آخر من الاصلاحات المرتبطة بكرامة الأمة لوجدنا روحنا القومية لا تزال تعالجها من حيث أسبابها المادية ، الفقر والجهل والمرض ، مع أن الدول الراقية عالجتها لتفور كرامتها القومية منها . فنحن نريد مثلا إلغاء الغاء الرسمى ونشعر كأفراد بأن بقاء هذا النظام يسيء الى الكرامة — لكنا — كمجموع — لا نشعر بذلك كما شعر سوانا ، فلا سبيل للأفراد الى اقتناع عام بضرورة الإلغاء الا عن طريق الاحصاءات الصحية والجنائية . مع أن الأمم الراقية لم تبحث فى الواقع عيوب هذا النظام بل قامت بالإلغاء إرضاء لكرامتها القومية ، ثم أيدت الابحاث العلمية صواب هذا الإلغاء .

إن كثيرا من الاصلاحات العامة المرتبطة مثلا بالمحافظة على التقاليد والأعياد واللغة القومية لا تحرك حتى الآن من الروح القومية سوى انفعالات مؤقتة ، وما يبذل من الجهود فى هذا الميدان لا يزال مطبوعا بالطابع الفردى . انظر الى العاصمة وإلى الثغر الاسكندرى تجد الأمة قد ألفت رؤية لوحات الحوانيت ودور السينما والملاهى ، والاعلانات والنشرات التجارية والضوئية مكتوبة بلغات أجنبية أظهر من العربية ومجردة من الطابع القومى ، بل إننا فى تحدثنا بالأحياء الوطنية إنما نشير الى الأحياء الفقيرة .

وقد يحسب بعض من تغيب عنهم هذه الحقائق الاجتماعية أنه لا فرق بين نشأة الاصلاحات ، بل إن بعضهم لا يعتقد بوجود هذه القوة الحيوية القومية ، فلا يسلم بوجود روح وإنما يرد الأشياء الى المادة دون سواها ، فإذا لم تكن هذه هي طبيعة مجموعة الإصلاحات القائمة ، كان أساسها فرديا وكانت مجرد نشاط يراد به شغل الأذهان عن حقيقة ما يدور حولنا من المشاكل العالمية ، كما يحدث عند الأزمات السياسية ، وحاشا أن يكون الأمر كذلك فإن تطور الأمة يدحضه ، وعزم المصلحين من أبنائه ينفيه .

إن إدراك الجماعة حتى ترقى الى ما فوق الغرائز والحاجات والانفعالات ، عرفت ماتحتاج إليه من إصلاحات وما تطالب به منها ، فتوجههم الأفراد والهيئات إليها بعد تحديد أولاها والمفاضلة بينها حتى تصبح فاضلة وحاكمة ، ووجد التوازن بين حاجات الأمة المادية والأدبية ، واختفت الشكوى من أن الحاضر أقل مرتبة من الماضي ، على الرغم من مظاهر الرقي وتزايد الرخاء ، ولقد يتوافر الرقي الصحي والعلمي والاقتصادي في أمة أكثر مما يتوافر في أمة أخرى ، ولكنها تكون على الرغم من ذلك منحدرة سائرة نحو الزوال .

إن مشروع مقاومة الحفاء خطوة قومية جديدة . انه إصلاح من النوع الراقي الذي يقود روح الجماعة إلى ادراك جديد لكيانها الحقيق ، ويكشف تنفيذه عن استعداد قومي وشعور عام بالكرامة ، إذ كيف يجوز لأمة هذا حظ أبنائها من الثروة والرقي والمدنية أن تسير في مجموعها ذليلة المظهر بين مثيلاتها من الأمم ، على حين يتهمونها في تطورها بالتقيد ؟ وكيف وهي التي نشرت على الإنسانية نور العلم والعرفان والحضارات المتنوعة وحمت مصباحه الأجيال الطوال ، وهي التي تطمح بنهضتها إلى زعامة غيرها من الأمم الشرقية . نقول : كيف ترضى أمة كهذه أن تمشي حافية الأقدام ، ويرى السائحون أنها غريبة في عواطفها عن الأقوام الذين حضروا المشاهدة آثارها الخالدة ، كما يرى الأجانب المقيمون فيها ، وغيرهم من المستفيدين من ثروتها إنها تجهل معنى الكرامة في مظهر قومي كهذا ، فضلا عما له من فوائد مادية أخرى .

لقد بادرت طبقات الأمة إلى التبرع بسخاء لهذا المشروع الذي سيستر من نفسها وجسمها عيبا ونقصا ، ويحيطها برداء مادي وأدبي جديد ، يرد للفقير شيئا من كرامته ، ويسعد المتبرع بكرامته القومية . وللطبيب والاجتماعي والتاجر والصانع أن يأخذوا بعد ذلك حظهم الوافر من هذا الاصلاح الكبير .

حسين رمزي